الذوق النقدي في الأدب قديماً وحديثاً

د: عادل إبراهيم مسعود الصويعي ـ بقسم اللغة العربية ـ كلية اللغات
جامعة المرقب

Research title (Critical taste in ancient and modern literature)
After searching,Adel Ibrahim Masoud Al-Suwaie's conditio

Search summary:
Literary taste is what evaluates a work in terms of the beauty and artistic value produced by the writer. Taste is related to the critic and the writer. As for the critic, he must understand and interpret the textual dimensions to a great extent. This requires the equipment and gear of learning the sciences of the Arabic language in all its categories, such as grammar, morphology, and prosody.... Do not forget that the society and environment in which the critic was raised have a great influence. As for the writer, he must take into account the reader and how to convey the idea or emotion in a smooth and simple way without complexity. The writer writes the text resulting from those turbulent emotions and feelings, and the human experiences that he has gone through throughout his life. Here lies the literary taste in how to convey those emotions to the reader in the way that they should.

الملخص:

إن الذوق الأدبي هو الذي يقوم بتقييم عمل ما من حيث الجمال والقيمة الفنية الذي أنتجها الكاتب، ويرتبط الذوق من جهة الناقد ومن جهة الأديب، أما من جهة الناقد فلابد له من فهم وتفسير الأبعاد النصية بشكل كبير، وهذا يحتاج إلى العدة والعتاد من تعلم العلوم في اللغة العربية بجميع أصنافها من نحو وصرف وعروض ...، ولا ننسى بأن المجتمع والبيئة التي تربى فيها الناقد لهما تأثير كبير وأما من حيث الأديب فلابد له أن يراعي القارئ وكيفية إيصال الفكرة أو العاطفة بشكل سلسل وبسيط دون تعقيد،

فالأديب يكتب ذلك النص الناتج عن تلك الخلجات والعواطف الجياشة، والتجارب الإنسانية التي مرت عيله طيلة حياته، وهنا يكمن الذوق الأدبي في كيفية إيصال تلك العواطف للقارئ بالشكل الذي ينبغي عليه .

المقدمة:

كانت بدايات النقد الأدبي قديما مبنية على الحكم الفطري الذي يفتقد إلى التعليل؛ ولكنه في المقابل كان نقدا سليما بعيدا عن الأهواء، ولذلك فإن الذوق الأدبي يتعلق بالحس الفني الذي يمكّن القارئ من التفاعل مع النصوص الأدبية بطريقة عميقة، سواء كانت شعرية أو نثرية، ويعكس قدرة الفرد على تقدير قيم الجمال الأدبي والتمتع بها، وبالتالي فإن الذوق الأدبي يتفاوت من شخص لآخر، ويتأثر بالثقافة والتجربة الشخصية، فضلا عن المعرفة الأدبية .

إن الذوق الأدبي يتجاوز مرحلة مجرد فهمه للنصوص الأدبية إلى أكثر وأكبر من ذلك فهو يقدر القيمة الجمالية للعمل الأدبي، وهذا لا يحدث إلا بوجود قارئ متأمل لأسلوب ذلك الشاعر والروائي والقاص،فلابد للقارئ الذوّاق أن يكون متوازنا بين العاطفة والتفكير، وبين المحتوى والفكرة، وهكذا، ولذلك حق لنا أن نقول : إن الذوق الأدبي يعد مزيجا بين الإدراك والإحاطة الكاملة بالعمل الأدبي الذي يكون ناتجا عن طريق التفاعل مع النص .

ويعتقد الباحث أن الذوق النقدي يفتح مجالات رحبة في عالم الأدب بجميع أصنافه من شعر ورواية وقصة ومقالة، فالنقد يقوّم تلك الأعمال الأدبية التي انتشرت بشكل واسع في هذا العصر.

وقد اعتمد الباحث في بحثه على المنهج الاستقرائي والمنهج التاريخي، وأما سبب اختيار البحث فهو راجع لسببين :

الأول: إن الذوق الأدبي لا يحظى بدراسات كثيرة من حيث الذوق نفسه؛ لأنه تمت فرق بين النقد وبين الذوق النقدي.

الثاني: المساهمة في إضافة الإثراء المعرفي والبحثي في الميدان النقدي والأدبي.

وأما عن الخطة البحثية فقد قسم الباحث بحثه إلى المطالب الآتية:

المطلب الأول : مفهوم الذوق الأدبي لغة واصطلاحا ، والمطلب الثاني: دور الذوق في النقد الأدبي ، والمطلب الثالث: الذوق الأدبي قديما وحديثا ، وقد خلص البحث بخاتمة توصل فيها الباحث إلى أهم النتائج

المطلب الأول : مفهوم الذوق الأدبي لغة واصطلاحا .

أولاً ـ الذوق في المعجم اللغوي:

في المحيط : "ذاقه ذوقاً وذوقانا ومذاقة اختبر طعمه، وتذوقه ذاقه مرة بعد مرة، وفي المنجد: الذوق ملكة تدرك بها الطعوم، والذوق الطبع، يقال هو حسن الذوق للشعر أي مطبوع عليه"[1].

ويرى الباحث أن الذوق ملكة يمتلكها الناقد البارع الذي يمتلك القدرة في تحليل وفك الكلمات التي تحمل المعنى الجمالي في النص، ولكن لابن خلدون كلام آخر، فهو يرى أن الذوق هو "حصول ملكة البلاغة للسان واستعير لهذه الملكة عندما ترسخ ويستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان وإنما هو موضوع لإدراك الطعوم، ولكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما هو لإدراك الطعوم استعير لها اسمه، وأيضاً فهو وجداني للسان كما أن الطعوم محسوسة له فقيل له ذوق"[2].

أما معنى الذوق في المعجم الأدبي: "موقف المرء أورد فعله تجاه ظاهرة جمالية، أو موقف اجتماعي سواء كان حسنا أو سيئاً"[3].

ومعنى هذا أن الذوق عند أحد من الناس ناتج عن انعكاس جمالي أو غير إيجابي، إما سلبا أو إيجابا، وبالتالي ربما تجد قارئا ما، له هواية في قراءة الأدب الأندلسي وتجد العكس، وتجد من يهوى قراءة الأدب الجاهلي، والعكس، وهكذا .

ثانياً ـ الذوق اصطلاحاً:

أما الذوق اصطلاحا، فقد تعددت مفاهيمه وتعريفاته،فمثلا يرى الأستاذ الدكتور حمزة السلطاني أن " التذوق ملكة أو حاسة فنية، التذوق الفهم الدقيق لعناصر النص الأدبي، التذوق خبرة تأملية جمالية، التذوق استجابة وجدانية"[4] .

فمن عادة الناقد أن يمتلك الحاسة الذوقية التي تمكنه من فهم النص بشكل عميق، ويغوص في عالم جماليات النص الأدبي، وبالتالي ستنتج الخبرة الواسعة الناتجة عن مراس التأمل في عالم الأدب وما يحويه من شعر وقصة ورواية ...

ويرى الدكتور ماهر البدري أن "الذوق له معنيان هما: الخبرة وملكة البيان، ففي الخبر يقال: ذقت فلانا وذقت ما عنده أي خبرته وبلوته ومنه قوله تعالى:(فأذاقها الله

لباس الجوع والخوف) أي ابتلاها، أما ملكة البيان، فهذه الملكة لا تتكون بدون خبرة والاختبار والممارسة والدربة ومعاشية كل ما هو رائع وجميل من الشعر والأدب"[5].

إذن فالذوق ينتج عن الممارسة والاختلاط بالبشر حتى تعرف الحسن و السيء منهم، ولا تتولد الخبرة إلا بالدربة وطول الممارسة، أما ملكة البيان فنستطيع أن نقول إنها تنمو مع الإنسان لأنها فطرية، فتجد المرء ذوّاقا في الاختيار المناسب للمأكل للملبس، وكذلك في اختيار النص الذي ينسجم معه .

فمفهوم التذوق الأدبي ملاصق لمفهوم الأدب، فالأدب يؤثر عندما تكون اللغة رصينة ومحكمة، وبالتالي فإن الذوق سيكون حاضرا، ونستطيع أن نقول إن علاقة الأدب بالذوق علاقة انسجام[6].

"كما عرف بأنه "الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذى يثير شعور المتلقي قارئاً كان أو مستمعاً، ويحدث فيه لذة كاللذة التي تحس عند سماع الغناء أو الموسيقي أو رؤية الجمال"[7].

ويعتقد الباحث أن التأثير العاطفي لدى القارئ مردّه النص الواضح الخالي من التعقيد اللغوي، فكلما كانت البساطة في النص كلما كان الذوق أرقى وأسمى .

ولا يكون الذوق الأدبي حاضرا إلا بوجود الأدب الذي يكون فيه الجمال النصي سمة من سماته من حيث تراكيب الألفاظ وسبك المعاني، وتؤكد ذلك ثريا محجوب محمود حين عرفت التذوق الأدبي "بأنه نوع من السلوك الذي ينشأ من فهم المعاني المتضمنة فيه النص الدبي والإحساس بجمال أسلوبه ، والقدرة على الحكم عليه والتأثر بالصورة البيانية المتضمنة فيه"[8].

المطلب الثاني ـ دور الذوق في النقد الأدبي:

يرى محمد محسن أن "دور الذوق في النقد لابد أن نعلم أن مهمة النقد تكمن في كشف الجماليات وبنية النص وكل مدرسة تختلف عن الأخرى في الكشف عن تلك الجماليات، ولكن هدفهم واحد وهو جوهر النص، وبالتالي فإن الذوق يمكن أن يكون عائقا إذا وضع الكتاب نصوصه بين أيادي أولئك الذوّاقين، بأنها رائعة وجميلة فيدخل النص حيز العاطفة الذوقية إن صح التعبير إلى إفساد عمل أو دور النقد في النص،

فالنقد يؤدي الدورة الفاحصة في النص بأكمله من حيث سلامة اللغة والأسلوب، وكل ما يتعلق بتراكيبه" .[9]

"إن الناقد الأدبي يستفيد اليوم -وهو يؤدي عمله في تحليل الأدب ودرسه وتقويمه– من جميع المعارف والعلوم والخبرات المتاحة في هذا العصر، كعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد والمذاهب الأنثروبولوجيا، وغيرها، وهو يحاول أن ينتفع بثمرات هذه المعارف المتعددة، فيسلطها على الأدب لدراسته والتعمق في فهمه، والإحاطة به من جميع جوانبهم"[10].

ولذلك فإن الناقد الذوّاق يخوض في ميدان التحليل والبحث للكشف عن تلك الجماليات في النص الأدبي.

ويرى الباحث أن الانطلاق من المناهج الدينية والفلسفية والاجتماعية وغيرها وحدها غير كافية، فقبل الخوض في تلك المناهج لابد من الاطلاع الواسع بكافة أدوات النقد التي تؤهله لأن يكون ناقدا عن استحقاق، من تعلم النحو والصرف والعروض والثقافة الأدبية من شعر ورواية وقصة وغيرها... فلا نستطيع أن نطلق حكم النقد بالجيد أو الرديء إلا إذا متقنا لتلك العلوم .

المطلب الثالث ـ الذوق الأدبي قديما وحديثا:

أولا ـ الذوق الأدبي قديما :

لقد اهتم النقاد العرب قديما ببيان دور الذوق في النقد، وأن يفصلوا في ذلك البيان، وإن فيما أوردوا من النصوص مما يشتم منه فهمهم لدوق الذوق في النقد، نصوصاً كثيرة ولا تحدد، تتم ولا تفصل جوانب الذوق، وكنهه وقدرته كما فعل نقاد العصر الحديث.

وبالتالي إذا تتبعنا تاريخ بدايات النقد في الجاهلية فإن نرى أن النقد كان فطريا ساذجا دون وجود علل وأحكام التي تحكم بها على النص الشعري، ومن ذلك مثلا ما رأيناه في سوق عكاظ في العصر الجاهلي، فالشاعر النابغة الذبياني يأتيه الشعراء ويحتكمون إليه، فحكم بأفضلية شعر الخنساء على حسان بن ثابت وكلنا نعرف تلك القصة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف حكم النابعة على أفضلية شعر الخنساء على شعر حسان بن ثابت؟ وما هي الأحكام والقواعد التي استعان بها النابغة حتى حكم بالأفضلية بينهما؟ هل النقد عند النابغة كان عادلا بينهما؟ .

والأجوبة على تلك الأسئلة تكمن في أن النقد له مرجعيات عند النابغة ومنها فصاحة اللغة والموضوعية والنزاهة وغزارة العلوم والتكمن في الشعر، فالنابغة كان يتميز الفطنة والذكاء المطلق، زد على ذلك الذوق الذي تكوّن نتيجة الدربة والممارسة، إذن المعاير الذي كان موجودا في الجاهلية هي كثرة العلوم، وحفظ الكثير من الشعر، فالإدراك الواسع ينتج عن وجود ذوق فسيح المجال والاختيار الموفق في النصوص والكشف عما فيها من الجماليات.

وإذا تتبعنا أيضا بدايات العصر الإسلامي عندما نزل القرآن على النبي محمد –صلى الله عليه وسلم- اهتموه بالسحر والشعوذة وأن كاهن، وكان زعماء قريش أفصح العرب على الإطلاق، بل إنهم كانوا يتباهون بذلك من بين القبائل، ولكن عندما سمعوا بالقرآن كانت مخاوفهم كبيرة بانهيار سمعتهم وفصاحتهم، فبعثوا للنبي -صلى الله عليه - وسلم أفصح من عندهم من قريش، وهو الوليد بن المغيرة، فعندما جاء للنبي –عليه الصلاة والسلام- فقرأ ما تيسر عليه من القرآن، فقال الوليد مخاطبا قريش: "فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذ يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة إنه لمثمر أعلاه مغدق أسلفه وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم من تحته"[11].

فالواضح أن الحكم الذي أطلقه الوليد بن المغيرة، حكم فطري ذوق، ناتج عن غزارة ثقافته وتبحره في الشعر، وهو أعلم زعماء قريش في تلك الحقبة الإسلامية.

ولقد أشار الآمدي والجرجاني إشارات متعددة في كتبهم تتعرض لهذا الذوق، فيقول الآمدي: "ويبقى ما لم يمكن إخراجه إلى البيان، ولا اظهاره إلى الاحتجاج، وهي علة ما لا يعرف إلا بالدرية ودائم التجربة وطول الملابسة، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ممن نقصت قريحته وقلت دربته بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطبائع وامتزاج، وإلا لا يتم ذلك، وأكلك بعد ذلك إلى اختيارك وما تقضى عليه فطنتك وتمييزها ، فينبغي أن تنعم النظر فيما يرد عليك، ولن ينتفع بالنظر إلا من يحسن أن يتأمل، ومن إذا تأمل علم، ومن إذا علم أنصف"[12].

ويرى ابن طباطبة العلوي في الشعر بأنه: "كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد الذوق"[13] .

ثانيا ـ الذوق الأدبي حديثا:

يقول بن خلدون: "اعلم أن لفظة الذوق يتداولها المعتنون بفنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة للسان، وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تركيبه وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإن هذه القوانين إنما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها"[14] .

إذن ابن خلدون يرى أن الذوق ينتج عن طريق الاطلاع البلاغي وخاصة علم البيان، ونستطيع أن نقول أن الذوق يحتاج إلى الفصاحة مما ينشأ عنه الحكم الصحيح على النص فالذوق لا ينتج عن مسلمات أو قواعد .

أما شوقي ضيف فيرى الذوق" ملكة تنشأ من الإكباب على قراءة الشعر وآثار الأدباء في القديم والحديث بحيث تصبح استجابة صاحبها لما يقرأ استجابة صحيحة"[15]

ويقول ريتشاردز:" إن الإحساس والصور والوجدان والانفعال- بالإضافة إلى اللذة وعد اللذة والألم- جميعها أسماء نطلقها على المميزات الشعورية للدوافع، وكيفية التمييز بينها بدقة مشكلة يزيد من صعوبتها قصور اللغة في هذا الميدان"[16].

فاللذة هي من معاني الذوق الناتجة عن إحساس ووجدان القارئ، وبالتالي فإن للغة دور كبير في تمييز الأحاسيس التي بدورها نستطيع إدراك جماليات النص .

أما في قاموس لاروس الكبير فإن الذوق يعني "إن استعمال كلمة(gout) للدلالة على الملكة التي ندرك من خلالها الجمال والقبح، وكذلك الكمال والنقص في الإبداع الأدبي والفني"[17]

وتتجلى قيمة الذوق الأسمى في إجلاء بصر القارئ وتنقيته وتوجيهه نحو الجميل الفطري، فالذوق الأدبي هو القوة التي نستطيع بها تقدير العمل الأدبي وتمييز قيمه الجمالية من غيرها من القيم، إنه ميزان الجمال ومحكمه، فالعبقرية الأدبية أو الفنية تنتج الجمال والتذوق يتلقاه ويحتضنه .

الخاتمة :

بتوفيق الله وكرمه ومنّه يختتم الباحث بحثه الذي يأمل بأن يكون نافعا للقرّاء وقد توصل الباحث إلى أهم النتائج أوجزها في الآتي :

1- إن كلمة الذوق لها مرجعيات قديمة وليست حديثة غير أن الذوق في القديم كان ناتجا عن الفطرة الخالصة، بينما في الحديث ناتج عن ممارسة وإتقان للغة .

2- يعتمد الذوق الأدبي على وجود قراءات متمعنة عميقة تكشف عن أسرار جماليات النص

3- يختلف النقاد في تحليلهم للنص وفقا لاختلاف أذواقهم .

4- إن عمل الذوق يعتبر خطوة استباقية قبل النقد؛ لأن الناقد الأدبي لا يستطيع الحكم على النص إلا عند دراسته وتحليله .

5- تعد مهارة الذوق الأدبي من أبرز المهارات الأدبية التي لا يمكن الاستغناء عنها لأن مهارة الذوق هي تفتح للناقد بصره وعقله في فهم النص .

6- إن البلاغة واللغة علمان مهمان في كسب مهارة الذوق، فالبلاغة هي تحسن وتجمل النص من معان وبيان وبديع، واللغة في التي تقوّم النص وتجعله رصينا محكّما.

الهوامـــــــــــــش:

1- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تح، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، مادة ذ و ق .

2- ينظر "مفهوم التذوّق الأدبي" د.راضي فوزي حنفي موقع منتديات بوابة العرب http://vb.arabsgate.com

3- المعجم الأدبي، نوّاف نصّار، ط1،2007، دار ورد للنشر والتوزيع2006، ص:82 .

4- الذكاءات المتعددة والتذوق الأدبي، الأستاذ المساعد د. حمزة هاشم السلطاني، ط1،2015م،1436هـ، الدار المنهجية للنشر والتوزيع، ص: 41،42 .

5- التذوق الأدبي، طبيعته- نظرياته-مقوماته- معاييره- قياسه، د. ماهر شعبان عبد الباري،ط1،2009،1430، دار الفكر، عمان، ص:85 .

6- ينظر الأدب ومذاهبه، محمد مندور، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، 1974، ص4.
7- الرد على البهائيين في ضوء المنهج اللغوي، محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، مكتبة مصر للنشر، القاهرة، 1986م، ص7.
8- تنمية التذوق الأدبي لدى تلاميذ الصف الثالث الإعدادي وأثر ذلك على قدرتهم على التعبير الكتابي، ثريا محجوب محمود ، 1991م، ص41.
9- ينظر محمد المحسن، النقد مسؤولية ضميرية ذوق أدبي وثقافة معرفية، مقالة أمد، https://amad.ps/533311 .
10- الرد على البهائيين في ضوء المنهج اللغوي، محمد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، مرجع سابق، ص 115.
11- فتاوى الشبكة الإسلامية، مجموعة من المؤلفين، شهادة الوليد بن المغيرة ببلاغة القرآن الكريم، د،ط، 1636/6 .
12- تأثير تدريس النصوص الأدبية في ضوء نظرية عبد القاهر الجرجاني على التذوق الأدبي لطلاب الصف الثاني الثانوي، صبري عبد المجيد هنداوي، رسالة ماجستير غير منشورة ، معهد الدراسات والبحوث التربوية ، جامعة القاهرة، 1995، ص 24.
13- عيار الشعر، ابن طباطبا، تح: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، د،ط، المكتبة التجارية،1956م .
14- التذوق الأدبي، طبيعته- نظريته- مقوماته- معاييره- قياسه، د. ماهر شعبان عبد الباري، مصدر سابق، ص:84 .
15- المصدر نفسه، ص:85 .
16- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر،أ.رتشاردز، تر: محمد مصطفى بدوي، لويس عوض وسهير القلماوي، ط2005،1م، ص:148.
17- التذوق الأدبي، إبراهيم عوض، مرجع سابق، ص:20 .